نجيب محفوظ يبدأ عامه الـ 95

بقلم يوسف القعيد

كنت آتياً من قريتى البعيدة، مجنداً فى القوات المسلحة، والذى دفعنى للمجىء لمصر المحروسة، هو حب القراءة وهواية الكتابة بعد أن كبشا فى حبة الفؤاد. استخرجت رقم تليفون بيته من دليل التليفون، وهو نفس الرقم الحالى. ولم يتغير فيه سوى ما أدخل من تغييرات على أرقام الحى. اتصلت به رد علىّ بنفسه. عرفته بنفسى وطلبت لقياه. وببساطة وبأقل الكلمات الممكنة. حدد لى موعداً، بعد يومين، من الساعة الخامسة والنصف حتى الثامنة والنصف يوم الجمعة بمقهى ريش. لم أسمع فى كلامه رنة الترحيب المبالغ فيها، ولا طرطشة عواطف أولاد الفلاحين، ولكن بابه كان مفتوحاً أمامى عبر كلمة واحدة: أهلاً. لا تحاول مقارنة هذه البساطة المراوغة بجيوش السكرتارية لدى معاصريه. السباعى وعبد القدوس والشرقاوى والسحار. واستحالة التواصل معهم ولقياهم مع أنه يعتبر أكثر أبناء جيله إخلاصاً للقراءة والكتابة. وأكثر من بذل العرق والجهد فى سبيل القراءة والكتابة، ومن أجلهما. ومع هذا كان متاحاً. من السهل لقياه. سهولة لقياه تقابلها صعوبة مقابلة مجايليه من الكتاب والأدباء، أيضاً ربما استمد الآخرون قدراً من نفوذهم من الوظائف التى كانوا يحتلونا فى التمع. ربما سبقت هذه الوظائف مكانتهم الأدبية فى حين أن شرعية وجود نجيب محفوظ أتت من كتاباته فقط. فى المقهى سحبت كرسياً وجلست بالقرب منه، وجدت مكاناً خالياً بجواره لالتزامى بالوصول فى الخامسة والنصف بعد الظهر. طلب لى شاياً وعزمنى عليه، سمعت من يقول بتشف: أبسط يا عم. بدأت بعزومة من عم نجيب، والرجل الذى يتوسط الجلسة، ينصت أكثر مما يتكلم. يستمع إلى ما يريد الاستماع إليه فقط.

فى زيارة تالية - وكنت قد اكتشفت المثلث الذهبى: سور الأزبكية ومكتبة مدبولى ومقهى ريش - أبدأ رحلتى من سور الأزبكية الدور لميدان العتبة، الذى أنزل من الأتوبيس فيه عند نهاية الخط،

كانت معى كتب. هى حصيلة جولتى على سور الأزبكية من مبتدئه عند باب المسرح القومى حتى منتهاه، حيث ترى مدخل الأوبرا وأنت عند آخر كشك من أكشاك السور. رأى الكتب فى يدى لحظة وصولى إلى المقهى. تقريباً كنا بمفردنا. لالتزامه الدقيق. تضبط عليه ساعتك، ولوصولى مبكراً وحرصى على ذلك. لفتت الكتب نظره، ألقى نظرة عليها، وبكلمة موجزة كان يلخص العمل، ويحدد رأيه فيه: الجزآن الأول والثانى لرباعية الإسكندرية لدريل من ترجمة سلمى الخضراء الجيوشى. جسر على نهر درينا لأيفو أندرتش. ترجمها د. سامى الدروبى - رفيق رحلة نجيب محفوظ إلى يوجوسلافيا. والتى تمت بقرار من عبد الناصر. وكان هذا سبب مشاركة نجيب محفوظ "ورطة" السفر الذى ظل طول عمره يقاومها - تورتيلا فلات لشتاينبك. ترجمة سيد جاد - الـمترجم الجميل ابن أسوان، الذى لم نشعر برحيله، الرجل نجيب محفوظ ليس كاتباً جيداً فقط لكنه قارئ أكثر جودة. إذن لا كتابة جيدة بدون قراءة أكثر جودة، وبعد ذلك بسنوات عندما خذله بصره قال لى عبارة فى رثاء بصره الذى خذله: حزنى على فقدان القدرة على القراءة يفوق حزنى بسبب القدرة على الكتابة. لا تتصور، متعة القراءة سبقت أى متعة أخرى فى الحياة بما فى ذلك متعة الكتابة نفسها. قال لى إنه من أجل أن يقرأ البحث عن الزمن الضائع لمارسيل بروست، ولم تكن قد ترجمت إلى العربية بعد. اضطر لتعلم اللغة الفرنسية. واشترى نسخة وكان يستأذن من عمله فى وزارة الأوقاف. ليجلس على مقهى الفيشاوى. يدخن الشيشة. ويمينه رواية بروست، وبيساره قاموس يساعده على فك غموض بعض الكلمات التى يستعصى عليه فهمها. وهكذا قرأ النص فى لغته الأصلية، ولأنه قرأ فى نفس الوقت تقريباً رواية عوليس باللغة الإنجليزية، وقارن بينهما يقول: البحث عن الزمن الضائع أكثر دفئا. ورحلتها فى أعماق النفس البشرية تولد اكتشافات إنسانية جميلة. أما عوليس جيمس جويس فقد كانت وعرة، وقراءتا لم تكن ممتعة قط.

فى ريش حالة من الاحترام للرجل ودوره وكتابته وإنسانية تعامله. تجاوزات قليلة لا يسمعها هو عادة. من قاص وشاعر وكاتب لم يكتب سوى قصة واحدة يسألنى فى هذه اللقاءات المبكرة مرتين: الأولى عن أحوال الريف وحياته الآن وبعد كلام مستفيض وحكايات كثيرة. يقول لى: أولى رواياتى

كانت عن الريف كان عنوانا: أحلام القرية. فلم أنشرها لأننى بعد الانتهاء من كتابتها لم أشعر بالرضا عنها. لم يكن فيها القرية المصرية وعندما كتبتها لم أكن وضعت قدمى فى أى قرى من قرى مصر. اعتمدت على خيالى فقط. والخيال لا يكفى بالنسبة لكتابة النص الروائى. لأن الرواية هى فن التفاصيل الصغيرة، أى قدرة على مراجعة الذات ؟ وأى حزم فى التعامل مع نزواتنا ؟ إن قهر النفس أول الطريق لكل صاحب مشروع كبير، وهناك فارق بين من يكتب هذا الفن أوذاك. ربما يجيد فى عمل وتخونه الإجادة فى عمل ثان. وفى مرة ثانية سألنى عن الفيلم المأخوذ عن روايته "بداية ونهاية"، وخصوصاً أداء الفنانة سناء جميل فى دور نفيسة الذى أعجبه بدون حدود. ويكشف عن جانب لم أكن أعرفه من هوايته التى يحافظ عليها: الذهاب إلى دور السينما. وبطريقته المنظمة القائمة على منطقة الأشياء يقول: أولاً مكان مكيف وسط هجير حر لا يطاق فى قاهرة يوليو وأغسطس من كل عام. لم يكن ترف وسحر البرجوازية الخفى الذى نراه فى كل مكان الآن حيث إن أجهزة التكييف -مثل السيارات - أكثر عدداً من المصريين فى المدن وفى القاهرة تحديداً على الأقل. وثانياً - يكمل نجيب محفوظ - متابعاً فن أحببته منذ شبابى الأول وأحب متابعته، بل واستمتع بذلك.

أراه غاضباً مرتين على مدى سنوات طويلة. الأولى عندما مس أحد الحضور شخصية سعد زغلول بطريقة أقرب إلى التجريح. والثانية عند الكلام عن مصادرة مسرحية سبع سواقى لسعد الدين وهبة، بسبب ظروف النكسة والجراح التى مازالت مفتوحة، ميدان الجراح الغائرة، وكان نجيب محفوظ مستشاراً لوزير الثقافة، وحول له نص المسرحية لإبداء الرأى فيه. لم أسمعه يتكلم عن عمل يكتبه حتى عندما صرت أكثر اقتراباً منه. وأصبحت الجلسات يومية أو شبه يومية، وساعاتنا أطول، وفاجأنا ذات مساء بأنه انتهى من كتابة "أصداء السيرة الذاتية" وقلل من أهميتها كثيراً بتواضعه الحقيقى. وليس محاولة الإيحاء بالتواضع أو ادعاء التواضع. كم من كاتب توقف عن الكتابة لكثرة كلامه عن نصه وهو يكتبه، وكم من كاتب تبخر إحساسه بموضوعه من كثرة الكلام عنه خلال الكتابة. عرفت اثنين من كبار كتابنا أصيبا بأضرار كثيرة، وصلت لحد التوقف عن القدرة عن

الإبداع وجفاف ينابيعه فى أعماقهما، بسبب غواية الثرثرة عما يكتبانه، أما نجيب محفوظ فقط كان يتكتم ما يكتبه باعتباره قضيته وحده. الإبداع فعل لا يقسم على أكثر من إنسان.
أنظر إلى تعبيره عندما تكون عنده كتابة. يقول عندى "شغل". وقابل فعل الشغل بكلمة ما يثيره من عرق وكدح وعناء ومعاناة. وفى أيامنا هذه عندما تكون لديه أحلام فى انتظار النشر من أحلام فترة النقاهة، يقول إنا ستستره فى الأيام القادمة هل رأيت معنى "الستر" ؟ الرجل يعتبر التوقف عن الإبداع فضيحة ولا يستره سوى أن يكون لديه فائض من نتاج قلمه. روائى كبير، صاحب أ كثر من أربعين عملاً روائياً وقصصياً وراءه كل هذا التراث، ومع هذا يعتبر أن نتاج الماضى كوم وكلمة واحدة يدونا فى الحاضر كوم آخر. وهو القادر وحده على "ستره". المرة الوحيدة التى حكى فيها حلماً رأى فيها عبد الناصر لم يكتبه ربما حكاه كاسراً بذلك إحدى قواعد إبداعه. لأنه لم يكن ينوى أن يكتبه.

يخرج نجيب محفوظ من منزله ستة أيام فى الأسبوع، واليوم السابع، السبت، يكون لديه فيه شغل أيضاً أنه يتفق مع محمد سلماوى على عمود يوم الخميس فى الأهرام الذى ينشر تحت عنوان: وجهة نظر، أما فى باقى أيام الأسبوع فلديه جدول ثابت: يخرج. يذهب مع الأصدقاء، الذين يشكلون قيمة مهمة فى حياته. يقضى أربع ساعات خارج البيت كل يوم. لو رأيت صعوبة رفع قدميه من فوق الأرض ومحاولة انتزاعها ومقاومة قوانين الجاذبية، لأدركت مدى تضحية الخروج كل يوم. يوم الاثنين يقطع المسافة بين بيته فى العجوزة وفندق مواجه لمطار القاهرة الدولى. وذلك من أجل قضاء أربع ساعات مع الأصدقاء، فى ثرثرة ليست على النيل. إن الحكاية أكبر من قضاء الوقت الذى يمكن أن يقضيه فى بيته. إن التشبث بالحياة سمة جوهرية من صفاته. وإذا عرفنا أن الوجه الآخر لها هو التشبث بالكتابة. وكلاهما من وجهة نظرى كفاحاً ضد الفناء ومقاومة للنسيان. الكتابة ليست شهرة. ولا دوراً اجتماعياً. ولا وجاهة اجتماعية يمارسها نجيب محفوظ فهو أبعد ما يكون عن كل هذا لكنها قضية يبقى ما كتبه ما دامت هناك ورقة فيها كلمات مطبوعة له.

للرجل العديد من المزايا الأخرى تأملها بعناية كل ما يمكن أن يوفر الكثير من حالات هدر إمكانيات الأدباء والكتاب والمبدعين التى تجرى فى كل لحظة فالرجل لم يضع قدمه فى سفارة أجنبية قط مهما كان المبرر الذى كان يمكن أن يدفعه لذلك ودخول سفارة ليس بجريمة. المهم هو الهدف وطريقة التعامل. ولكن يبقى الحفاظ على عدم الدخول إلى إحدى السفارات إنجازا حقيقياً. وقد يتصور الكثيرون أن نجيب محفوظ وفدى، صحيح أنه وفدى الهوى ولكن لم يكن عضواً منظماً فى حزب الوفد، وربما لم يقل أبداً أن الأديب الحقيقي هو حزب قائم بذاته أقوى من كل أحزاب الدنيا ولكن هذا ما فعله بسلوكه وتصرفه. فارق كبير بين أن يكون هواك وفدياً وأن تكون منظماً وعضواً بالحزب. الهوى من بعيد يزرعك فى جنة الرؤية الموضوعية والدقيقة أما نار الاندماج من الداخل فتجعلك جزءاً من الآلة الحزبية الجهنمية، ترى الأمور من قلب رؤية الحزب وإن دفعتك فرديتك إلى الخروج على الأيديولوجية الحزبية السائدة. ولا بد أن يحدث هذا. إن عاجلاً أو آجلاً. تفاجأ بترسانة قوانين الحزب ولوائحه التى ربما كانت أقسى.

إن الكلام عن الثوابت والمتغيرات لا يعنى رفض التغيير الذى قد يصل إلى حدود الجمود. ورغم أن الرجل اشتهر بيننا بأنه ينحت لنفسه عادات وتقاليد ثم يستعذب السير عليها والإخلاص لها لحد العبودية الكاملة. إن هذا الإنسان الصارم فى تنفيذ العادات هو من المغيارين الكبار فى الكتابة الإبداعية. إنه هو نفسه الذى نرى من خلال كتاباته الفارق الضخم بين كتابة المقال وإبداع الرواية. ومن يقرأ روايات أربعينيات القرن الماضى وروايات العقد الأخير منه سيكتشف أن هذا الكاتب انقلب على نفسه وأعاد إنتاجها أكثر من مرة فى يعمره. إنا الرحلة من بداية ونهاية إلى الثلاثية. إلى الحرافيش، إلى أصداء السيرة الذاتية. ففى الوقت الذى خدعنا فيه جميعا بنظام رتيب للحياة إذا بالرجل فى العملية الإبداعية يفاجئنا حتى فى الزمن الذى يخلو من المفاجآت بما لم نكن قادرين حتى على استيعابه، ومن قرأ " تحت المظلة" بعد 67. سأل نفسه: هل ينتج النظام الصارم كل هذه الفوضى؟ إن رغبة الخروج من الأطر التى وضعوه فيها جعلته هو الروائى يكتب القصة القصيرة بل والنص المسرحى والمحاكمة الروائية بل أنه فى الوقت الذى قالوا فيه عنه إن فكرة رفض السلطة

صعبة بالنسبة له لأنه كما قال لى لويس عوض - يحاول أن يحمى موهبته لكى يتفرغ لإبداعه بعيداً عن الاضطرابات. لديه سلسلة مقالات نشرت فى الأهرام. كان عنوانها: من مفكرة نجيب محفوظ. كان رئيس تحرير الأهرام هو يوسف السباعى الذى طلب منه وقف الكتابة بسبب غضب السادات وخيراً فعل، لأننا بذلك قرأنا التناول الروائى لزمن السادات وتجربته. سواء فى: الحب فوق هضبة الهرم، وحتى يوم قتل الزعيم. ومن المؤكد أن هذه المقالات أزعجت الكثيرين الذين سعوا لإبلاغ السادات الذى لم يكن من محبى القراءة ومريديها. وكان هو الذى يعلن عدم إقباله على القراءة بنفسه.

هذا هو نجيب محفوظ فى الرابعة والتسعين، مكانه المفضل الأماكن العامة. كانت المقاهى المفتوحة فيما قبل محاولة الاعتداء عليه. وهى الآن أماكن مؤمنة. أكاد أضحك من أعماقى عندما أشاهد سيارة الشرطة تمشى وراءه. الرجل الذى داست قدمه فوق كل شبر من القاهرة أكثر من ألف مرة بين الهواء الطلق وصديق عابرى السبيل. أصبح لا يتحرك سوى تحت الحراسة، التى ليست مشددة. ذات مساء جاءته سيارة الشرطة. المكلفة بحراسته، فى حين أخلف من كان سيحضر إليه بسيارته موعده. فركب تاكسياً وخلفه سيارة الشرطة ومع هذا ما زال مصراً على التواصل مع الحياة ومصراً على الكتابة، رغم صعوبات الكتابة بالنسبة له حتى لو كانت أسطر تشكل أحلام فترة النقاهة. أو بعض الآراء فى أمورنا العامة.

والرجل ينطلق من خندق حافظ عليه طول عمره المديد تلخصه كلمة واحدة: الليبرالية. ليست مجرد كلام ولكنها سلوك حقيقي. ربما أغضب من التزامه بها. ولكنه مستعد فعلاً لأن يدفع حياته ثمناً لحق خصمه فى أن يبدى رأيه. ربما لم أسمع منه هذه العبارة تحديداً ولكنه يمارسها سلوكاً كل يوم. أيضاً لديه تلك القدرة الفريدة على التسامح، حتى مع من أساءوا إليه ونسيان هذه الإساءة وأيضاً قدرته على الفصل بين الخاص والعام. كأن بداخله خطوطا كثيرة يلتزم بها حتى عند الكلام أرى فى

نجيب محفوظ قدرة نادرة على التعامل مع الجانب المقبول من كل شىء وكأنه لا يرى الجوانب الأخرى.

قالت لى فاليريا كيبرتشينكو فى الاتحاد السوفيتى. إن مشكلتى ديستوفسكى أنه كان حفار قلوب، لا يرى إلا عيوب البشر حتى من مجرد رؤية ملامحهم الخارجية فى الشوارع. وتلك مشكلته. لكن نجيب محفوظ يتعامل مع أطيب الجوانب فى الناس، ولا يسعى لاتام أحد، وربما بحث عن عذر له حتى لو كان عدوه، ودراسته المبكرة للفلسفة تركت لديه القدرة الفريدة على الوصول إلى لب الأشياء وجوهرها، والنجاة من الغرق فى التفاصيل الصغيرة. ربما يلتقط هذه التفاصيل من أجل خلق جو روائى ولكن عندما يكتب يحفر تحت الأرض ويحلق حتى سماء اللـه العالية. باحثاً عن جوهر الوجود وطارحاً أدق الأسئلة وأكثرها حرجاً على واقعه وأبطاله وزمنه.

كلمتان قالهما نجيب محفوظ تلخصان تجربته الأولى: عندما أكتب لا أعبأ بأى شىء. والكلمة الثانية: المتلفت لا يصل. أورد هاتين الكلمتين، من بين كلمات كثيرة قالها، سمعتها أذنى من فمه مباشرة وحفظتها لأهميتها، أوردهما متمنياً على الأدباء الجدد التوقف أمامهما طويلاً. حتى لو نظروا للماضى فى غضب. فإن استيعاب عصارة حكمته مسألة توفر على الأديب الكثير من الجهد الضائع، والإمكانيات المهدرة. وقديماً قالوا: من ليس له معلم. عليه أن يبحث عنه، حتى يجده، وإن لم يجده يصنعه، ثم يتعلم منه.